تفسير ابن كثير

يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه : ذلك الذي قصصناه عليك من خبر عيسى عليه السلام { قول الحق الذي فيه يمترون } أي يختلف المبطلون والمحقون ممن آمن به وكفر به ولهذا قرأ الأكثرون قول الحق برفع قول وقرأ عاصم وعبد الله بن عامر قول الحق وعن ابن مسعود أنه قرأ ذلك عيسى بن مريم قال : الحق والرفع أظهر إعرابا ويشهد له قوله تعالى : { الحق من ربك فلا تكن من الممترين } ولما ذكر تعالى أنه خلقه عبدا نبيا نزه نفسه المقدسة فقال : { ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه } أي عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون المعتدون علوا كبيرا { إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون } أي إذا أراد شيئا فإنما يأمر به فيصير كما يشاء كما قال : { إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * الحق من ربك فلا تكن من الممترين } .

وقوله : { وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم } أي ومما أمر به عيسى قومه وهو في مهده أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربه وربهم وأمرهم بعبادته فقال : { فاعبدوه هذا صراط مستقيم } أي هذا الذي جئتكم به عن الله صراط مستقيم أي قويم من اتبعه رشد وهدي ومن خالفه ضل وغوى وقوله : { فاختلف الأحزاب من بينهم } أي اختلف أقوال أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله وأنه عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فصممت طائفة منهم وهم جمهور اليهود ـ عليهم لعائن الله ـ على أنه ولد زنية وقالوا : كلامه هذا سحر وقالت طائفة أخرى : إنما تكلم الله وقال آخرون : بل هو ابن الله وقال آخرون : ثالث ثلاثة وقال آخرون : بل هو عبد الله ورسوله وهذا هو قول الحق الذي أرشد الله إليه المؤمنين وقد روي نحو هذا عن عمرو بن ميمون وابن جريج وقتادة وغير واحد من السلف والخلف .

قال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن قتادة في قوله : { ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون } قال : اجتمع بنو إسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفر أخرج كل قوم عالمهم فامتروا في عيسى حين رفع فقال بعضهم : هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من أحيا وأمات من أمات ثم صعد إلى السماء وهم اليعقوبية فقال الثلاثة : كذبت ثم قال اثنان منهم للثالث : قل أنت فيه قال : هو ابن الله وهم النسطورية فقال الاثنان : كذبت ثم قال أحد الاثنين للاخر : قل فيه فقال : هو ثالث ثلاثة : الله إله وهو إله وأمه إله وهم الإسرائيلية ملوك النصارى عليهم لعائن الله قال الرابع : كذبت بل هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته وهم المسلمون فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قالوا فاقتتلوا وظهروا على المسلمين وذلك قول الله تعالى : { ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس } قال قتادة : وهم الذين قال الله : { فاختلف

الأحزاب من بينهم } قال اختلفوا فيه فصاروا أحزابا .

وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس وعن عروة بن الزبير وعن بعض أهل العلم قريبا من ذلك وقد ذكر غير واحد من علماء التاريخ من أهل الكتاب وغيرهم أن قسطنطين جمعهم في محفل كبير من مجامعهم الثلاثة المشهورة عندهم فكان جماعة الأساقفة منهم ألفين ومائة وسبعين أسقفا فاختلفوا في عيسى ابن مريم عليه السلام اختلافا متباينا جدا فقالت كل شرذمة فيه قولا فمائة تقول فيه شيئا وسبعون تقول فيه قولا آخر وخمسون تقول شيئا آخر ومائة وستون تقول شيئا ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلثمائة وثمانية منهم اتفقوا على قول وصمموا عليه فمال إليهم الملك وكان فيلسوفا فقدمهم ونصرهم وطرد من عداهم فوضعوا له الأمانة الكبيرة بل هي الخيانة العظيمة ووضعوا له كتب القوانين وشرعوا له أشياء وابتدعوا بدعا كثيرة وحرفوا دين المسيح وغيروه فابتنى لهم حينئذ الكنائس الكبار في مملكته كلها بلاد الشام والجزيرة والروم فكان مبلغ الكنائس في أيامه ما يقارب اثنتي عشرة ألف كنيسة وبنت أمه هيلانة قمامة على المكان الذي صلب فيه المصلوب الذي يزعم اليهود والنصارى أنه المسيح وقد كذبوا بل رفعه ا إلى السماء .

وقوله { فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم } تهديد ووعيد شديد لمن كذب على ا وافترى وزعم أن له ولدا ولكن أنظرهم تعالى إلى يوم القيامة وأجلهم حلما وثقة بقدرته عليهم فإنه الذي لا يعجل على من عصاه كما جاء في الصحيحين [إن ا ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته] ثم قرأ رسول ا صلى ا عليه وسلّم : { وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد } وفي الصحيحين أيضا عن رسول ا صلى ا عليه وسلّم أنه قال : [لا أحد أصبر على أذى سمعه من ا إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم] وقد قال ا تعالى : { وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير } وقال تعالى : { ولا تحسبن ا غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار } ولهذا قال ههنا : { فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم } أي يوم القيامة وقد جاء في الحديث الصحيح المتفق على صحته عن عبادة بن الصامت Bه قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : [من شهد أن لا إله إلا ا وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبد ا ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وأن الجنة حق والنار حق أدخله ا الجنة على ما كان من العمل]